قراءة في كتاب

الأسر العلمية ظاهرة فريدة في الحضارة الإسلامية

د. علي عفيفي علي غازي*

الأسرة هي اللبنة الأولى في بناء النسيج الاجتماعي، والأسرة قديمة قدم الخليقة، ولذا فقد استوعبت عبر تاريخها الطويل ذلك الركام الهائل من الثقافة الإنسانية، الذي يعكس كل التغيرات الاجتماعية والثقافية التي شهدتها المجتمعات، ولهذا كونت النقطة الأولى التي يبدأ منها التطور، فهي الوسط الطبيعي الاجتماعي الذي يترعرع فيه الفرد، ويبذل الأبوان الغالي والنفيس من أجل تربية أبنائهم وتنشئتهم وتعليمهم، فالأبناء أمانة في أعناق آبائهم، يولدون بقلوبهم الطاهرة الخالية من كل نقش وصورة، قابلين لكل ما ينقش عليها، ففي كثير من الأحيان يجد الفرد داخل إطار أسرته المناخ المناسب للإبداع الأدبي أو العلمي، فالأسرة هي المنشأ الذي تتفتح عليه عيون الفرد، ومن خلالها يتهيأ للتعامل مع مجتمعه الأكبر أو وطنه المحيط به، فإذا ما نبت في أسرة علمية فإن ميوله - في الأغلب الأعم - ستكون ميولًا علمية، ويأتي ذلك من عامل الوراثة الذي يعني انتقال صفات الأفراد من جيل إلى آخر؛ فالطفل يرث من أبويه الصفات الجسمانية، كما يرث أيضًا القدرات العقلية، وأبرز هذه القدرات التي تورث هي الذكاء.

الأسرة هي مدرسةُ أفرادها، التي تقوم بتنشئتهم اجتماعيًا، كما أنها تعمل على نقل الاهتمامات والميول من جيل إلى جيل، وتعودهم على التقاليد، وخاصة الآداب العامة والسلوك والدين والعلوم، ومن ثم فإن وظيفتها هي إعداد الفرد ليصبح نواة في المجتمع وأساسًا من أسس تكوينه، الأمر الذي يساعد على تقويمه وتقويته، وهذه العوامل الوراثية ليست بالعامل الهين، وليست بالعامل الوحيد، ولكنها تؤثر تأثيرًا إيجابيًا مهمًا في توريث ميول واهتمامات الآباء لأبنائهم، الأمر الذي يميز أسرًا بعينها؛ ينبغ أفرادها في مجالات علمية واحدة، هذا ما يقدمه د.خالد حربي من خلال تساؤله الذي يطرحه: هل شهد تاريخ علوم الحضارة الإسلامية وجود أسر علمية تربطها علاقات دم أو قرابة؟ سؤال مهم يحاول أن يجيب عنه في كتابه «الأسر العلمية ظاهرة فريدة في الحضارة الإسلامية»، الذي صدر في مصر أخيرًا عن المكتب الجامعي الحديث بالإسكندرية، ليؤكد على أن عصر ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، الذي عاشه العالم الإسلامي قد شهد نبوغ أسر أو عائلات اشتغلت بالعلم، وكانت تربطها علاقات دم أو قرابة، عملت وفق أطر معينة ومنهج محدد من أجل ازدهار وتقدم العلوم التي احتوتها حركة النهضة العلمية.

ومؤلف الكتاب د.خالد حربي أستاذُ وخبيرُ المخطوطاتِ بجامعة الإسكندرية ومن المهتمين بالتراث الإسلامي، وله أكثر من أربعين مؤلفًا، تهتم بالتراث العلمي الإسلامي، وله مسيرة علمية حافلة، توجها أخيرًا بحصوله على جائزة المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية في مجال الفقه الطبي وتحقيق التراث وفق أصول فن التحقيق، والتي تعد من أرقى الجوائز العربية والعالمية، وجائزة الكويت للتقدم العلمي.

يؤكد من خلال مؤلفه هذا على أن تاريخ علوم الحضارة الإسلامية قد شهد العديد من الأسر العلمية التي يربط أفرادها قبل الاشتغال بالعلم علاقات دم أو قرابة، وربما كانت هذه العلاقات أحد الأسباب الرئيسية التي ساعدت على نبوغ تلك الأسر في المجال العلمي، وتعد مثل هذه الأسر ظاهرة فريدة تتفرد بها الحضارة العربية الإسلامية عن سائر الحضارات، هذه الأسر قامت بينها علاقات تعاون وتنافس وصراع، ومن أمثلة هذه الأسر أسرة بختشيوع، التي نبغ أفرادها في علم الطب إلى درجة أنهم خدموا الخلفاء ابتداءً من الجد الأكبر ومرورًا ببعض الأبناء والأحفاد، فضلًا عن إسهاماتها في حركة النقل والترجمة، وأسرة حنين بن إسحق التي اشتهرت في مجال الترجمة، وأسرة ثابت بن قرة، وأسرة موسى بن شاكر، التي نبغت في الفلك والهندسة والميكانيكا والمساحة والفيزياء، وأسرة بني زُهر في المجال الطبي، الأمر الذي يؤكد أن تاريخ العالم العربي الإسلامي قد شهد أسرًا علمية نبغت في مجالات علمية واحدة، ويحاول المؤلف أن يؤكد على أن النماذج التي قدمها للأسر العلمية التي شهدها التاريخ العلمي الإسلامي ليست كل الأسر بل هي عبارة عن نماذج تحاول أن تجيب عن التساؤل الذي طرحته الدراسة (ص٦).

وقد قسم المؤلف الكتاب إلى مقدمة وبابين، اشتمل كل باب على فصلين، ثم اختتم بفصل أخير عن نتائج الدراسة.

في الباب الأول عرف بأسر حركة الترجمة والنقل، وهي أسر بني حنين بن إسحق، وبني قرة، وبني بختشيوع، وفي الباب الثاني عرض لأسر العلوم البحتة، وهي أسر بني موسى بن شاكر، وبني زُهر، وخلص الباحث في النهاية إلى أن النهضة العلمية التي عاشها العالم الإسلامي كان من أبرز سماتها وجود أسر علمية نشطة تعمل وفق منهج محدد من أجل ازدهار العلوم، ولعبت دورًا بارزًا في حركة تقدم العلوم.

ومن تحليله لهذه الأسر العلمية وتتبعها اتضح مدى التواصل العلمي بين أفراد الأسر والجماعات العلمية المختلفة، رغبة في العلم الذي خلع على أهله في ذلك العصر إجلالًا وتوقيرًا من العامة والخاصة.

* دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر

وقد ساد بين هذه الأسر نُظُمٌ من العلاقات قائمة على التعاون والمحبة تربط بعضهم ببعض من أجل تحقيق أهداف الأسرة ككل.

كما اتضح من خلال البحث أن النشاط العلمي لمعظم الأسر العلمية التي تناولها المؤلف لم يقتصر على أفراد الأسرة ذات النسب القائم على قربى الدم؛ بل إن الأسرة الواحدة ضمت في بنيتها العلمية أفرادًا لا تربطهم بالأسرة صلات دم أو قرابة.

وفي الفصل الأول قدم المؤلف نموذجًا لأسرة نبغت في مجال حركة الترجمة والنقل في العلوم الطبية، وهي أسرة حنين بن إسحق، وذلك بترجمة مؤسسها وخصائص عمله العلمي من إرساء قواعد علمية ثابتة، واتساع مجال نشاط الأسرة إلى تحقيق النصوص الإغريقية، وترجمة الكتب من علوم الحضارات الأخرى إلى اللغة العربية، ثم عرف بإسحق بن حنين الذي تفرد عن أبيه وأستاذه بميزة مهمة في تقاليد الأسرة، وهي تنوع التخصصات في ممارسة العلم، فإذا كانت مدرسة حنين بن إسحق تخصصت في ترجمة ونقل الكتب الطبية؛ فإن إسحق بن حنين ترجم كتبًا في الفلسفة والمنطق لأشهر الفلاسفة اليونانيين كأرسطو، كما ضمت الأسرة حبيش بن الأعسم ابن أخت مؤسسها، وكان أقرب تلاميذه إليه وأكثرهم قربًا وملازمةً له، الأمر الذي يجعله أحد دعائم الأسرة الرئيسة التي ارتكزت عليها مدرسة حنين بن إسحق في الترجمة.

وفي الفصل الثاني تناول د.حربي أسرتين برزتا كذلك في مجال الترجمة هما: بنو قرة، وبنو بختشيوع. ضمت الأولى ثابت بن قرة الذي انصب جهده على ترجمة ونقل المؤلفات الطبية، فضلًا عن بعض الترجمات الفلسفية، وابنه سنان، وحفيده ثابت بن سنان، وضمت هذه الأسرة أفرادًا لا ترتبط بهم بصلات دم أو قرابة، كعيسى بن أسيد؛ الذي تتلمذ على يد مؤسس الأسرة، وأظهر نبوغًا، واستحق تقديم ثابت بن قرة له، للدرجة التي سمح له بمناظرته، وهو تقليد علمي لا يوجد إلا في المجتمعات العلمية المتقدمة الراقية في العلم.

وأسرة بختشيوع التي قدمت إلى بغداد ونبغت في الترجمات الطبية دون غيرها، واختصت كذلك بالتعليم الطبي، وأول من وفد منها إلى بغداد جورجيس بن بختشيوع الذي استقدمه الخليفة العباسي المنصور، وصار طبيبه الخاص إلى أن توفي في خلافته، ثم استقدم المهدي من جنديسابور ولده بختشيوع ليحل محل والده جورجيس، فظل في خدمته وخدمة الهادي والرشيد طبيبًا حاذقًا، وبعد وفاته استقدم الرشيد ابنه جبرائيل وصار طبيبه الخاص وجعله رئيسًا للأطباء، وظل كذلك زمن الأمين والمأمون حتى توفي في خلافة الأخير.

وفي الفصل الثالث توقف الباحث أمام نقد وتقييم أسر الترجمة والنقل، وإلى أي مدى ينطبق عليها مفهوم الأسرة العلمية، ودورها في النهوض بالحضارة الإسلامية، ليؤكد على أن المجتمع العلمي الإسلامي قد شهد إبان عصر الترجمة وجود أسرٍ علمية، شهدت تعاونًا، وتنافسًا، انعكس أثره على نهضة الحضارة الإسلامية.

الأسرة مدرسة تقوم بتنشئة أفرادها اجتماعياً وأدبياً وسلوكياً

وفي الفصل الرابع عرض لأسرة نبغت في العلوم البحتة كالفلك والهندسة والميكانيكا والمساحة والفيزياء، وهي أسرة بني موسى بن شاكر التي ضمت الأبناء الثلاثة (محمد وأحمد والحسن) لموسى بن شاكر، الذي لم يُقدر له أن يعمل في تلك الجماعة العلمية لأنه توفي وهم أطفال صغار، فكون هؤلاء الأخوة الثلاثة جماعةً علميةً متآزرة قدمت أعمالًا جليلة، وازدادت حصيلتهم العلمية، وتطورت أساليبهم التطبيقية إلى الدرجة التي مكنتهم من القيام بأول وأهم وأخطر عمل، وهو قياس محيط الأرض، الأمر الذي مكن هذه الأسرة من أن تلعب دورًا في تاريخ العلم وتشكل مكانًا رئيسًا في تاريخ التكنولوجيا بصفة خاصة، وقد تناول هذه الأسرة من خلال توضيح تكوينها العلمي وكيفية عملها، ومنهجها العلمي والتطبيقي، وأهم إنجازاتها العلمية، وأثرها في النهضة الإسلامية، للدرجة التي جعلت مؤرخي العلم يجمعون على أن أعمال هذه الأسرة تدل على عبقرية وذهن متوقد مبدع.

أما الفصل الخامس، فكان لأسرة بني زُهر التي ظهرت في الأندلس، ونبغت في مجال العلوم الطبية، وشكلت مكانًا رئيسًا في الطب العربي والعالمي، فرأينا رأس هذه العائلة أبا مروان يتقن صناعة الطب حتى صار خبيرًا بأعمالها، ومشهورًا بالحذق فيها إلى الدرجة التي انتشرت معها أخباره في مختلف أقطار الأندلس، ثم حرص على نقل خبرته إلى ابنه أبي العلاء الذي أظهر نبوغًا مبكرًا واستمرارًا للتواصل العلمي بين أفراد الأسرة، وقد لحق أبومروان بن أبي العلاء بأبيه في صناعة الطب درسًا وممارسة؛ حتى أصبح لا يوجد من يماثله في إدراكه لأعمال الطب، ثم برز الحفيد أبوبكر محمد بن أبي مروان لتتأكد به وتستمر التقاليد العلمية في أسرة بني زُهر لتتواصل إنجازات الأسرة العلمية التي عملت على تطور وتقدم علم الطب في العصور اللاحقة بما قدمته من إنجازات طبية أفادت منها البشرية كلها.

وفي نهاية الكتاب خلص د.حربي إلى نتيجة نهائية مهمة تدعو الباحثين إلى الاهتمام بدراسة الأسر العلمية في تاريخ الحضارة الإسلامية، بالبحث والتنقيب عن مؤلفاتهم التي لا تزال تهجع بسلام على أرفف المكتبات مخطوطة، وذلك بتحقيقها ونشرها لتفيد منها الإنسانية في مختلف فروع العلوم، وتؤرخ لدور العرب والمسلمين في تاريخ العلم العالمي لنتعرف على الأوجه المشرقة في التاريخ العربي والإسلامي.

ومن الجدير بالذكر أن النتائج التي توصل إليها الباحث تعد إضافة لحقل تاريخ العلوم عند العرب، وفلسفة العلوم والحضارة الإسلامية، كما أنه اعتمد في إعداد الكتاب على مصادر أصلية، واعتمد أيضًا على مراجع علمية رصينة، كما التزم بالموضوعية والحيدة، الأمر الذي يجعل كتابه إضافة لحقل العلوم الإنسانية.